حكاية حال

(المقتطف . انسنا بلقاء شاعر دمشق العصري صاحب السعادة سليم بك عنحوري قدم العاصمة زائرًا واتحف المقتطف بهذه القصيدة عن حادثة جرت في احدى مدن سورية)

سرق اللصُّ لاضطرارٍ وفقرٍ بعض مالٍ من جيب رب الثراء
باحتيالٍ ودربة واحترازٍ كان منها اليفُ الفِ عناء
لبس الخوف وارتدى الرُعْبَ التي يديهِ حياتهُ للبلاء
كل هذا التماس قوت عيالٍ ضاقَ منها بالنص رحب الفضاء
يالحي الله خلةً مذ المَّت دفعتهُ للخطة الشنعاء (١)
لا لعمري ما كان ذيّاك لصًّا لو تربى من معشرٍ فضلاء
هذبوهُ واكسبوهُ نشاطًا واجتناب الاضرار والاسواء
علموهُ على النفوس اعتمادًا ينتج الجدَّ للغنى والثناء
ان جرثومة الرذائل فينا ولّدت من تهامل الآباء

***

صبية بعضهم يسبق البعض هزالاً بفعل سوء الغذاء
وبنات مثل الملائك حُسْنًا عاريات يندبنَ حال الشقاء
حول أُمٍ تقرّحت مقلتاها من دواعي الزمان والارزاء
تشتكي البرد لاكساء يقيها لذعة القرّ لا وقود اصطلاء
كم نهارٍ كم ليلةٍ قد قضتها بين نوحٍ وحسرةٍ وبكاء
ظلماتٌ . صواعق وبروقٌ ورياحٌ تهبُّ فصلَ الشتاء
لا بساط ولا فراش وثيرٌ لا سراج ينيل بعض الضياء
شرفاتٌ بلا سدولٍ وسقفٌ دام بالوكف ممطرًا سيل ماء
عجز الزوج عن تعلُّم صنعٍ فيهِ كسبٌ كاثر البلداء
صار لصًّا يرجو بذاك نجاةً من بلاء الاعسار واللأواء
راقب الصيرفيَّ بعد انصرافٍ وهو يمشي في السوق قرب العشاء
فدنا منهُ والفؤاد هلوعٌ في طريقٍ خلت من الرقباء
مدَّ كفًّا بخفةٍ نحو كيسٍ فيهِ الف من فضةٍ بيضاء

(١) الخلة الفرومنة المثل (الخلة تدعو الى السلة) اي الفقر والحاجة يدعوان الى السرقة

سلب المال ثم غادر يعدو بين يأسٍ وخشيةٍ ورجاء
بلغ البيت بعد جهدٍ مُذيبٍ آمناً من سعاية الاعداء
بفؤادٍ يبغي الكفاف ليحيى وضميرٍ يخاف سخط السماء
ولج الدار طافح الوجه بشراً حاسباً نفسهُ من الاغنياء
افرغ الكيس ضاحكاً بين ايدي فتيةٍ يجهلون طعم الحساء (١)
فرح الكلُّ بالغنى بعد فقرٍ ثم ناموا بغبطةٍ وهناء

***

اشرف الجار بغتةً فوق سطح مذ وعى الشر عاد كالحرباء
كم لئيم من مثل ذا يتزيى زيّ اهل الوفاء وهو مراءٍ
يزرع الشر موضع الخير بغياً انما البغي دَيْدَنُ اللؤماء
راح يسعى بجارهِ دون نفع لذوي الحكم تحت ستر الخفاء
قرع الباب شرطة بعد نصف الليل هَبَّ النيامُ كالبلهاء
عاينوا الطرق غاصة بالوفرِ يزعجون الآفاق بالضوضاء
خرجوا من بيوتهم دون ستر غير ستر السماء في الظلماء
بعضهم بالزحام يسحق بعضاً سائلين الشرطيَّ بالايماء
اي ويلٍ واي خطب دهانا تلك حال الفضول في الجهلاء

***

امسكوا اللصَّ بعد ضرب وشتم كبّلوهُ ساقوهُ للايذاء
بين ندبٍ ينتت القلب حزناً وعويلِ الاولاد بعد النساء
ليس يدري ايقظة ام منامٌ ما رأى من مصيبةٍ وبلاء
طرحوهُ في السجن بين مئاتٍ من رجال زعانفٍ سفهاء
حرّضوهُ على ارتكاب الدنايا والمعاصي حتى بسفك الدماء
كان قبلاً يخاف سرقة مالٍ اصبح اليوم اعظم الاشقياء
تلك حال السجون من الف عامٍ في بلاد الجهال والاغبياء

***

انما السجن زاجرٌ لذويهِ عن فعال الطغام والاردياء (٢)

(١) المانع من الاطعمة كالمرق ونحوهِ من الغذاء (٢) الطغام او باش الناس ورعاعهم

فيهِ علمٌ صنائعٌ واشتغالٌ يكسب المرء شيمة الادباء
محكم الوضع متقن الصنع زاهٍ صالح العيش جالب للهناء
فيهِ كتب تهذب الخلق قسرًا فيهِ طب يزيل اعضل داء
فيهِ قومٌ ليرشدوا كل غاوٍ بحديثٍ ذي حكمةٍ وجلاء
هكذا السجن في بلاد حباها مالكوها ذرائع الارتقاء (١)
لا كسجن حوى جحيم شرور فيهِ تنمو نقائصُ الادنياء

***

زوجة اللص بادرت بعد شهرٍ نحو مغنى رئيس رهط القضاء (٢)
حالَ دون اللقاء حجّابُ بابٍ نفحتهم (بليرةٍ) صفراء (٣)
ادخلوها مقصورة ذات عرش فوقهُ ماكرٌ كثير الدهاء
قبلت هدب ذيلهِ ثم خرّت فرماها بنظرة الكبرياء
سألتهُ فكاك زوج أثيم رحمة بالبنات والابناء
وحبتهُ بعض المئات نقودًا فاحتواها بغلظة وجفاء
قال هلاّ اقتنعتِ بعض رفاقي فتقوام الرؤوس بالاعضاء
خرجت تذرف الدموع غزارًا نحو عضوٍ يعزُّ بالفحشاء
رام منها لكي تنال رضاهُ ما اليهِ تشير بالايماء
هالها الامر اعولت ثم ولت دون جدوى من فاسد الحرباء

***

لزم السجن زوجها ورجال البغي فازوا بسؤدد وعلاء
واللصوص الكبار صاروا قضاةً واللصوص الصغار اهل الشقاء
سلبوا المال رشوةً واستباحوا العرض جهرًا وهم من العظماء
واذا قيل من لنيل المعالي قبل هذا وذاك دون امتراء
واذا عدّ معشر الفضل يومًا حسبوهم من افضل الاذكياء
أبهذا ومثل هذا صلاحُ لا ورب الانباء والانبياء

سليم عنجوري

(١) راجع المقالة المثبتة في المقتطف (مجلد ١٣ : ص ٣٤٩) تحت عنوان سجن جديد في كاليفورنيا
(٢) المغنى المنزل والرهط الجماعة من الثلاثة الى العشرة (٣) الليرة في الاصطلاح الديناري